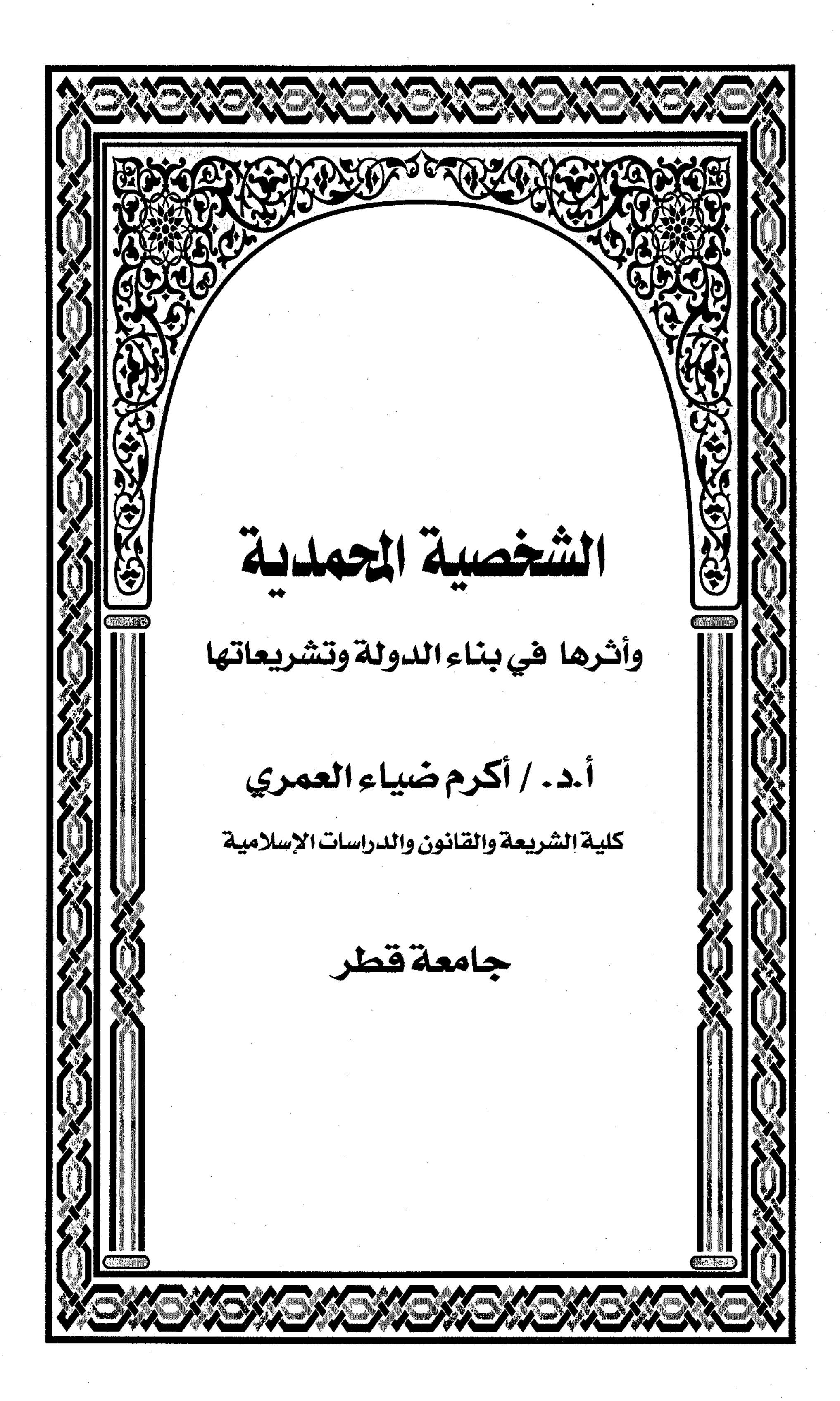


الشخصية المحمدية

وأثرها في بناء الدولة وتشريعاتها

أ.د. / أكرم ضياء العمري

كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

الشخصية المحمدية

وأثرها في بناء الدولة وتشريعاتها

أثر الشخصية المحمدية في المرحلة المكية:

محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وينتهي نسبه إلى عدنان ، وأمه آمنة بنت وهب من بني زهرة إحدى عشائر قريش.

ولد يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل، وكان أبوه عبدالله قد توفي قبل مولده وهو في مهمة تجارية بالمدينة.

ونشأ في بادية بني سعد قوياً فصيحاً حيث وقعت له حادثة شق الصدر الأولى وهو في الرابعة من عمره، فكانت أولى إرهاصات النبوة.

وكان جده عبدالمطلب يكفله، فلما مات وهو في الثامنة كفله عمه أبو طالب وكان متعلقاً به فصحبه في تجارة إلى الشام وهو في الثانية عشرة من عمره ، وكان يساعد عمه في الحصول على الرزق برعي الغنم.

وكان مشاركاً في أحداث مكة، حيث شهد حلف المطيبين(الفضول) وهو في العشرين من عمره، وهو تحالف بين قبائل قرشية على التناصر في الحق والخير، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يثني على ذلك الحلف بعد النبوة[١].

وقد عصمه الله من الكفر، وجنبه عبادة الأوثان التي عبدها قومه، فكان يتمسك بإرث إبراهيم عليه السلام فيطوف بالكعبة المشرفة[٢].

---

(١) أحمد : المسند (١ / ١٩٠ – ١٩٣)، وابخاري: الأدب المفرد حديث رقم (٥٦٧).

(٢) الطبراني : المعجم الكبير (٥ / ٨٨).

وقد تعرفت عليه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها خلال تعهده لتجارتها فرحبت بالزواج منه حين خطبها، وقد تركت آثاراً حميدة في حياته، فقد واسته في الشدة، فظل بعد وفاتها يثني عليها ويظهر محبتها ويذكر مسارعتها للإيمان به وشد أزره(٣).

وقد حبب إليه التعبد في غار حراء بمكة حيث يطل على الكعبة، فكان يمضي فيه الليالي ذوات العدد حتى نزل عليه الوحي فجأة وهو في الغار(٤) وذلك في نهار يوم الاثنين من شهر رمضان(٥) وعمره أربعون سنة(٦) وأوله ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾(٧) وقد استغرق نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة بمكة، وعشر سنين بالمدينة(٨)، حتى اكتمل نزول القرآن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقى من نزول الوحي عليه شدة ، فكان جبينه يتفصد عرقاً، وجسمه يثقل ، ويتعجل تلقيه، ويشد انتباهه خوف أن ينساه حتى طمّنه الله(٩).

وقد قام بمهمة إبلاغ الرسالة الإسلامي إلى الناس بادئاً بأصدقائه وأهل بيته وذلك في مرحلة الدعوة السرية ، ثم أعلن دعوته لعشيرته ولقريش بعد ذلك مجاهراً بعقيدة التوحيد ونبذ عبادة الأوثان. وواجه دعاية المشركين ضده متهمينه بالجنون وبالسحر وبالشعر وأحياناً يسبونه ويسبون القرآن، ويسلطون عليه سفاءهم فيرمون عليه فرث الجزور وهو ساجد يصلي، ونال أتباعه المستضعفين الكثير من الأذى والعذاب ، ولم يكن قادراً على حمايتهم، فأمرهم بالصبر والاحتساب وضبط النفس وعدم مقارعة القوة بالقوة حرصاً على

(٣) البخاري : الصحيح (١/٣)، ومسلم : الصحيح (١/١٤١).
(٤) البخاري : الصحيح (١/٣)، ومسلم : الصحيح (١/١٤٠).
(٥) مسلم : الصحيح (٨/٥١، ٥٢) وأبو داؤود: السنن (٢/٨٠٨ - ٨٠٩).
(٦) البخاري : الصحيح (فتح الباري ٦/٥٦٤)، ومسلم: الصحيح (٤/١٨٢٤، ١٨٢٧).
(٧) الآية ١ في سورة العلق.
(٨) البخاري : الصحيح (٤/٢٣٨)، ومسلم : الصحيح (١/١٣٩، ١٤٣ و٣/١٤٢٢.
(٩) البخاري : الصحيح (٨/٦٧)، ومسلم : الصحيح (١/١٣٩، ١٤٣، ٣٣٠ و٣/١٤٢٢.

حياتهم ، ونظراً لمصلحة الدعوة. وكان يربي أصحابه على عينه ، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله ، والتقرب إليه بالعبادة وقيام الليل. لكنه كان يخطط لهجرتهم طلباً للأمان، ووجد في الحبشة ملاذاً عند النجاشي- الذي كان يدين بالنصرانية واشتهر بالعدل- فأمر المسلمين فهاجروا إليها مرتين، واشتد المشركون على بني هاشم وزعيمهم أبي طالب بسبب حمايتهم للنبي صلى الله عليه وسلم حتى حصروهم في شعب أبي طالب مسلمهم وكافرهم منذ سنة سبع إلى سنة عشر للبعثة المحمدية[١٠]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم معهم في الشعب يحثهم على الصبر ويعمق معاني الإيمان في نفوسهم، وينشر الإسلام بين المشركين من عشيرته ، فكانوا حين خرجوا من الشعب أصلب عوداً وأقوى إيماناً وأمضى عزيمة.

وكان لوفاة أبي طالب وخديجة في العام العاشر من البعثة أثر في اشتداد ضغوط قريش على النبي صلى الله عليه وسلم مما جعله يطلب النصرة من قبائل العرب وأهل الطائف، لكنه واجه الإعراض والسخرية والأذى من ثقيف ، وعاد إلى مكة يحمل هموم الدعوة فكان أن سرَّى الله عنه بحادثة الإسراء والمعراج[١١]، حيث قام جبريل بشق صدره وغسله بماء زمزم استعداداً للإسراء به إلى بيت المقدس حيث صلى إماماً بالأنبياء، ثم عرج به إلى السماء السابعة حيث فرضت عليه الصلوات الخمس[١٢] ، وأثارت الحادثة المعجزة دوياً ساخراً في مكة..

وجاء الفرج عندما التقى النبي صلى الله عليه وسلم حجيج المدينة،

---

(١٠) ابن حجر: فتح الباري (٧/ ١٩٢ - ١٩٣) وانظر : موسى بن عقبة: المغازي (١/ ١٢٦ - ١٢٧)، وابن هشام: السيرة النبوية (١/ ٣٧٧).

(١١) الآية ١ في سورة الإسراء، والبخاري: الصحيح (فتح الباري ١/ ٤٥٨)، ومسلم: الصحيح (١/ ١٥٠).

(١٢) البخاري : الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٠٢ - ٢٠٣)، والطبري: التفسير (١٥/ ١٣، ١٤، ١١٠).

فدعاهم إلى الإسلام وأجابوه ، وقدموا في العام التالي فبايعوه بيعة العقبة الأولى ثم قدموا في العام الثاني عشر فبايعوه بيعة العقبة الثانية، ثم كانت الهجرة إلى المدينة، وكان اختيارها مهاجراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي إلهي [١٣].

وتتجلى شخصية النبي صلى الله عليه وسلم خلال أحداث المرحلة المكية عن روح عالية موصولة بالوحي، وخلق عظيم، وتواضع مقترن بالمهابة، وحياد مقترن بالشجاعة، وكرم صادق بعيد عن حب الظهور، وأمانة مشهورة، وصدق بالقول والعمل، وزهد في الدنيا، وتطلع إلى الآخرة، وإخلاص لله، ورحمة للناس كبيرهم وصغيرهم، ورغبة في هدايتهم مهما قسوا عليه وآذوه، مع لين الجانب ورقة المشاعر، وحب الصفح والعفو عن المسئ والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة، والصبر في مواطن الشدة، والجرأة في قول الحق.

وقد ساعدت شخصيته القيادية بعون الله وتسديده على تخطي العقبات التي واجهت الدعوة الإسلامية في تلك المرحلة لتبدأ مع الهجرة مرحلة بناء الدولة التي يمكن أن تكشف عن جوانب أخرى من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم تتصل بجوانب التأسيس والتنظيم والتخطيط لدولة المدينة التي اتسعت لتشمل معظم شبه جزيرة العرب في أواخر حياته.

أثر الشخصية المحمدية في بناء دولة المدينة :

وكانت ظروف المدينة معقدة حيث توجد فيها قبائل يهودية قوية إلى جانب المشركين الذين شقت الدعوة الإسلامية طريقها في وسطهم فاستجاب لندائها الأوس والخزرج وناصروها، فسموا بالأنصار، وبقي المشركون بين عقائدهم القديمة والدعوة الجديدة وبعضهم زعماء كبار مثل عبدالله بن أبي بن سلول زعيم الخزرج ومرشحها ليكون ملك المدينة قبيل الهجرة وقد تغيرت

---

(١٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٧/ ٢٣١).

الأحوال ، وفقد منصبه ، وله أشياع وأنصار يوالونه، وفي هذا الوسط ظهر المنافقون في أعقاب النصر الذي حازه المسلمون ببدر .

وليم يستجب اليهود لنداء الإسلام، بل سالموه في بداية الأمر، ثم لما قويت شوكتهم بعد بدر جهروا بالعداء وشرعوا بتحريض المنافقين عليه، كما حاولوا إهاجة العصبية وإذكاء الحرب بين الأوس والخزرج، وقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم جهوداً كبيرة في تنظيم الوضع الداخلي في المدينة ، فأعلن الوثيقة التي وضحت وحدة الأمة وحلفائها في الداخل، وخضوع الجميع مسلمين ويهود ومشركين لسلطة مركزية واحدة ، تحمي الأمن داخلياً، وتواجه الأعداء من قريش والأعراب خارجياً .

وقد دللت الأحداث على نجاح السياسة النبوية الموصولة بوحي السماء في تكوين مجتمع جديد له سمات مميزة أبرزها التوحيد والطاعة لأحكام الشريعة وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم والرغبة في الجهاد وحماية الدولة الناشئة، والقيام بإسنادها عن طريق النفقات المتنوعة وبذل الأموال والأنفس ذوداً عن حياضها .

ولما أثبتت الأيام غدر اليهود بالاتفاقيات المعقودة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم تمَّ إجلاء معظمهم سوى بني قريظة لتواطئهم مع الغزاة من الأحزاب سنة(٥هـ) حيث قتل مقاتلهم لتعريضهم الدولة لخطر السقوط وأرواح المسلمين للاجتثاث .

وقد واجه النبي صلى الله عليه وسلم الأخطار الخارجية بحزم وقوة فسعى لإضعاف قدرة مكة الاقتصادية بضرب مواصلاتها التجارية مع الشام والعراق، وصد محاولاتها لدخول المدينة لإسقاط الدولة الإسلامية عن طريق الخطط المنظمة التي توضح معنى التوكل على الله في العقيدة الإسلامية . فإثارة الحماس الديني ورفع معنويات المقاتلين، ورسم الخطط الحربية ، والاهتمام

والمتابعة الدائمة لتقلبات الحرب والسياسة كلها مظاهر للأخذ بالأسباب.

وقد انكسرت شوكة المشركين بعد غزوة الأحزاب ، وصارت مكة مسرح الأحداث التالية في العمرة والفتح.

ومن الواضح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصر جهوده على قضايا الأمن والاستقرار والعمل على وحدة شبه الجزيرة والاتجاه نحو الخارج ، بل كانت السياسة النبوية معنية بالعمران المادي والاجتماعي والثقافي.

فقد تمَّ بناء المسجد النبوي ، وأعقبه بناء مساجد أخرى، كما سبقه بناء مسجد قباء.

وأقطع الصحابة فضول الأراضي التي منحتها له الأنصار ليتصرف فيها، فأقاموا بيوتهم، وعمروا البساتين بعملهم فيها مع أصحابها من الأنصار حتى كان فتح خيبر سنة(٧هـ) حيث حازوا أسهماً في أراض زراعية خصبة، وقد ردوا منح الأنصار إليهم. وزرعوا مساحات جديدة في المدينة بالقمح عن طريق القطائع الزراعية ضمن خطة إحياء الأرض الموات[١٤].

وشجع النبي صلى الله عليه وسلم الصناعات الحربية واعداً العمال بالأجر الأخروي إلى جانب الكسب المادي. كما وجههم لتربية الخيول والعناية بها لأهميتها في الجهاد.

وكذلك أكد على أجر العمل التجاري والزراعي والصناعي حيث توجد أحاديث كثيرة في الحث على التنمية الاقتصادية المتنوعة.

وكان اهتمام النبي صلى الله عليه بنشر الإسلام وتوسيع دائرة الصحابة الفقهاء قد أثمر صفوة من العلماء والإداريين والقادة العسكريين والقضاة اللامعين والكتاب المتقنين، ولا شك أن الدولة الناشئة أفادت كثيراً من الطاقات

---

(١٤) أكرم العمري : عصر السيرة النبوية، ص ٣٠٠.

العالية في جوانب الحياة المختلفة. ولا شك أن من أعظم الإنجاز ما تحقق من بناء المجتمع المسلم وتنظيم الوسائل الكفيلة بتحقيق التكافل بين أفراده، والتوازن في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء، وضمان العدالة في القضاء، وإشاعة الحب والمودة ، والارتقاء بالذوق الاجتماعي العام.

وقد وجد نظام المؤاخاة لتحقيق نمط فريد من العلاقات التي ترقى على صلة القربى وتحل محلها في الميراث في بداية قيام الدولة ، وكان يلبي حاجة المهاجرين المادية والنفسية، ولكن الإرث بين المتآخين ألغى في أعقاب بدر لزوال مبرراته، على أن المؤاخاة بما فيها من مؤازرة ومودة ونصيحة ورفقة بقيت في عصر السيرة ومابعده.

وفي المرحلة المدنية تتضح الجوانب القيادية من شخصية النبي صلي الله عليه وسلم بجلاء ، حيث مارس القيادة السياسية إلى جانب النبوة، وكان أصحابه يطيعونه نبياً قائداً، وكان إيمانه الصادق وإخلاصه العميق وعبادته الكثيرة وخشيته لله وزهده في الدنيا ثمرة إحساسه بعظمة الخالق عز وجل، فهو دائم الشكر والذكر والإنابة والتوكل، مما غمر قلبه بمحبة الله. قالت عائشة: «كان يصلي ليلاً طويلاً قائماً، وليلاً طويلاً قاعداً»[١٥] وكانت قراءته للقرآن تختلط ببكائه فيسمع نشيجه ، وله أزير كأزيز المرجل[١٦]، وكان يسمع القرآن بأصوات الصحابة من أصحاب الحفظ والتجويد والأصوات الحسنة[١٧]، وكان يصلي التطوع في بيته، ويؤم الصحابة في المسجد في الصلوات الخمس المكتوبة[١٨]، وكان يتطوع بصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وقد كانت روحه الوثيقة الصلة بالله تؤثر في الصحابة رضوان الله

(١٥) مختصر الشمائل المحمدية (١٥٢). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١٦) أبو داؤود: السنن حديث رقم (٩٠٤).

(١٧) البخاري: الصحيح (فتح الباري ٨/٧٢٦) حديث رقم ٤٩٦١ و٩/٩٢).

(١٨) أبو داود : السنن ٩١٩.

عليهم أعمق تأثير.

وقد تقلبت أحواله بين الشدة والرخاء، وإدبار الدنيا وإقبالها، فكان الزهد يطبع حياته في كل الأحوال، يعرف ذلك في طعامه ولباسه وفراشه وبيته وتعامله مع الأموال(١٩).

ومن تصفح سيرته مع أزواجه أمهات المؤمنين تبهره الصور المشرقة من رقة طباعه، وعمق عاطفته ، ومراعاة مشاعرهن ، واحترام رغباتهن مادامت لا تخرج عن حدود الشرع وأحكامه(٢٠).

وكان الصدق يملأ حياته ويحكم علاقاته ويطبع أقواله وأفعاله، ويشهد له دارس سيرته بحسن الذوق، وجميل الطبع، وكرم الخلق، وحسن المعاشرة، ورفق المعاملة ، واعتدال المزاج ، وعدالة الأحكام، وصدق الكلام، ودوام التواضع، وحب العفو والحلم، ومخالطته المسلمين، والصبر على جفاء الأعراب ومعاملتهم بجوده وكرمه وحلمه. وقد وسعت رحمته البشر والأحياء الأخرى، وما أروع وصاياه بعالم الحيوان، فلا عجب أن يعبر عن جوهر رسالته بقوله: «إنما أنا رحمة مهداة»(٢١)، ومن لطف معاشرته مداعبته لأصحابه ومزاحه معهم ، ولا يقول إلا حقاً.

ويتسم خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بالبلاغة والفصاحة ، فقد أوتي جوامع الكلم ، فألفاظه القليلة تحمل الدلالات الكثيرة والمعاني العميقة، ولم يكن يطيل الكلام، ولا يسرع في الإلقاء، ولو عدَّ العاد كلامه لأحصاه(٢٢). ولا شك أن فصاحته وبلاغة اسلوبه البياني من عوامل نجاح الدعوة ، فإن العرب أمة بلاغة وفصاحة فلا تطيق الاستماع لكلام مجرد منهما.

(١٩) حماد بن إسماعيل: تركة النبي صلى الله عليه وسلم.
(٢٠) البخاري : الصحيح (٢/ ٢٠٠ - ٢٠٠١).
(٢١) الحاكم : المستدرك (١/ ٣٥) وصححه وأقره الذهبي.
(٢٢) مسلم: الصحيح (٤/ ٢٢٩٨).

وقد سلك الطرق الحكيمة في تبلغ تعاليم الإسلام للناس، وكان يحصر همه في بيان التوحيد ثم يوضح الأوامر والنواهي جملة وتفصيلاً بيسر وسماحة، ويبني عقيدتهم وأخلاقهم حسب القاعدة التي أوضحها «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[٢٣]، وكان يركز على الأصول دون إغفال الفروع، وقد ربى أصحابه على الشورى فيما لا نصّ فيه، وغرس فيهم الصفات القيادية، فقاموا بمهمات الدولة بعده خير قيام، ولا يعرف أي من الأنبياء السابقين بتربية أعداد غفيرة من الحواريين كما حدث في عصر السيرة.

(٢٣) البخاري: الصحيح، إيمان ٢٩.

مكانة السنة التشريعية

تعتبر سنة النبي صلى الله عليه وسلم المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم ، وهي ما ثبت صدوره عن النبي من الأقوال والأفعال والتقريرات المتضمنة للأحكام الشرعية، وقد أخذت مكانتها التشريعية بموجب آيات كثيرة وردت في القرآن كالآية :﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (الحشر / ٧) خلافاً لآراء روبسون وجولدزيهر وشاخت الذين ذهبوا إلى تأخر اعتبار السنة مصدراً للتشريع بعد عصر السيرة والخلافة الراشدة–أي في العصر الأموي– عند ظهور المشاكل في المناطق المفتوحة ، والحاجة الملحة إلى إيجاد حلول لها .(The Encyclopaedia of Islam, vol 111. 1956) مادة « حديث » كتبها روبسون (ROBSON) .

والسنة النبوية تبين معاني القرآن ومقاصده ، وتفصل الأحكام المجملة التي ترد فيه، وتخصص عامه (وذلك عندما تأتي الآية مشتملة على لفظ يتناول بصيغته أفراداً كثيرين غير محصورين تأتي السنة مخرجة بعض أفراد العام من الحكم الذي أفادته الآية متمثلاً ذلك الإخراج في بيان أن تلك الأفراد المخرجة لم يرد بالحكم الذي أتى به اللفظ العام فتكون السنة بذلك دافعة للحكم عن أن يثبت للأفراد المخصصة، مثلا ذلك الآية –اقتلوا المشركين– عام يتناول كل مشرك سواء كان محارباً أو لا ، فتخصيصه ببيان أن القتل يخص المحاربين)، وتقيد مطلقه(وذلك بأن تأتي آية مشتملة على لفظ شائع في جنسه متحقق في أية حالة من حالاته المتصورة، فتأتي السنة المطهرة مقللة من ذلك الشيوع مقيدة لذلك اللفظ مثل الآية﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ حيث دلت الآية على تحريم الدم في حالتي كونه مسفوحاً أو جامداً، فبينت السنة أن تحريم الدم مقيد في حالة كونه مسفوحاً أما الكبد والطحال فحلالان رغم أنهما دم) ،

وتضيف أحكاماً جديدة إلى أحكام القرآن لأن القرآن والسنة كليهما وحي من الله تعالى، لكن القرآن موحى بلفظه ومعناه، ويتعبد بقراءته، أما السنة فمعناها موحى به، وصياغة جملها من النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاء أسلوب القرآن متميزاً بوضوح عن أسلوب السنة مما يوضح مصدره الإلهي ، إذ لا يمكن للإنسان أن يؤلف بأسلوبين متمايزين تماماً عبر ثلاثة وعشرين عاماً، وهي الفترة التي نزل خلالها القرآن، وبين النبي خلالها السنة، وكان أسلوب النبي في التعبير عن معاني الإسلام ومقاصد الشريعة والأخلاق والآداب غاية في البلاغة والوضوح والإيجاز رغم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب مما يدل على أنه كان ملهماً أدبه ربه بالأدب العالي والبيان الرفيع.

وكان من واجب النبي تبيين ما يحتاج إلى تفسير، فالقرآن يفرض على المسلمين أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة. لكن القرآن لا يين كيفية القيام بهذه العبادات بل تكفلت بذلك السنة ، فهي تبين هيئة الصلاة وكيفية بدئها وانتهائها وحركاتها من قيام وقعود وركوع وسجود ، وما يقرأ فيها من قرآن وأدعية ، كما توضح السنة المقدار الذي تبلغه ثروة المسلم حتى يدفع عنها الزكاة ، وتبين مقادير الزكاة في الذهب والفضة والنقود وأعداد الماشية ، وكميات النتاج الزراعي، كما توضح أن الزكاة تجب على رأس المال والربح معاً سنوياً مرة واحدة كلما حال الحول عليهما. والزكاة حق للفقراء في أموال الأغنياء، وليست تطوعاً من الأغنياء، وهدفها تحقيق التكافل الاجتماعي، وتنظيم الزكاة فريد في تأريخ البشر الذين لم يعرفوا ضريبة على هذه الشاكلة من حيث التنظيم والشمول، وإن عرفوا الصدقة في الأديان السماوية الأخرى.

وقد قام العلماء المسلمون خلال القرون التي أعقبت ظهور الإسلام باستقراء شامل للسنة ، وعرفوا أن الأوامر الإلهية ليست بدرجة واحدة، بل منها ما هو

واجب على المسلم لا يستطيع الامتناع عنه إلا إذا أخل بالتزامه الديني، ومنها أوامر تحثه على عمل الخير وتعده عليه بالأجر دون أن تلزمه بذلك.

ومنها ما يتضمن بياناً لما ينهى الله عنه مثل الظلم والربا وشرب الخمر والزنا والكذب والغش في المعاملات والسرقة ، فهذه الأفعال يعاقب فاعلها.

ومنها ما يوضح الأفعال التي يكرهها الله ولا يحب أن يفعلها المسلم لكنه لا يعاقبه على فعلها، بل يهبه الأجر على تركها.

ومنها ما يدل على أن الأفعال مباحة له لأنها لا تعارض الشريعة ، وكان النبي يبين أحكام القرآن بأقواله وأفعاله، وأحياناً يأمر بكتابة بعضها مما يحتاج إلى التدوين مثل مقادير الزكاة ، وكان يقر أفعالاً تصدر عن الصحابة وينكر عليهم أفعالاً أخرى ، فاعتبر ذلك قسماً من السنة ، وهو التقرير، ومثال ذلك أن النبي أقر الصحابة على اجتهادهم في تفسير كلامه عندما أمرهم بأن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فمنهم من تأول كلامه ، وفهم منه الحث على سرعة التوجه إلى بني قريظة فلما حان وقت صلاة العصر صلوها في حينها، ومنهم من حمل النص على ظاهره فأخر صلاة العصر لحين وصوله إلى بني قريظة فأقر النبي الطرفين على اجتهادهم في تفسير أمره ، ومع مرور الوقت كانت تتضح معالم منهج رائع وضعه الأصوليون وطوروه على مدى قرن للتعامل مع السنة النبوية وغيرها من مصادر التشريع، ويتبين من مراجعة كتب أصول الفقه أن التعامل المباشر مع السنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية دن الالتزام بمنهج الأصوليين يفضي إلى أخطاء كبيرة في فهم الإسلام ، حيث إن السنة النبوية ينبغي أن تفهم في ضوء القرآن بحيث لا يتعارض فهمها مع مقاصده الكلية ، كما ينبغي جمع الأحاديث النبوية الخاصة بالموضوع الواحد لاحتمال وقوع النسخ أو التعارض بينها، لذلك لا يمكن دراسة حديث واحد بمعزل عن بقية أحاديث الموضوع ، وعند اكتشاف التعارض بين الأحاديث فينبغي محاولة

الجمع بينها للعمل بمجموعها ، وعدم إسقاط بعضها ، وهو الأولى عند إزالة التعارض ، فإن تعذر الجمع يصار إلى اكتشاف تأريخ كل حديث لتحديد السابق واللاحق من الأحاديث المتعارضة، وبيان وقوع النسخ في الحكم الذي يتضمنه الحديث الأقدم ، فإذا لم يعرف التأريخ فإنه يصار إلى الترجيح بين الأحاديث المتعارضة حسب درجتها من الصحة ، فالأحاديث التي تصلح أدلة للأحكام منها ما هو صحيح ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف تعددت طرقه فصار حسناً لغيره ، وأما الأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة ، فلا تعتبر عند التعارض.

ونظر عند الترجيح أيضاً إلى كثرة عدد رواة الحديث لأنها تزيده قوة ، كما ينظر إلى صراحة الدلالة على الحكم ، ثم إذا لم يتمكن الباحث من الترجيح بين الأحاديث المتعارضة فإنه يقوم باختيار ما يراه الأقوى والأظهر ، أو أن يسقط الأحاديث المتعارضة لتكافئها ، أو أن يتوقف في الحكم ، وهكذا فإن التعامل مع السنة يحتاج إلى معرفة دقيقة بمناهج المحدثين والأصوليين ، وهي معرفة واسعة تحتاج إلى ممارسة طويلة وتخصص دقيق.

أما من حيث الوثوق بالسنة ، فقد دون بعضها في حياة النبي وجيل الصحابة، ودون معظمها في جيل التابعين، ولم يكن ثمة فاصل زمني بين تأريخ صدورها عن النبي وتدوينها، ومع ذلك فقد تعرضت لحركة وضع واسعة النطاق، فنهض العلماء منذ الجيل الثاني بعد الإسلام للقيام بحركة تصحيح، وابتكروا منهجاً نقدياً دقيقاً لتمييز الصحيح من الضعيف، وبجهودهم تم توثيق السنة .

وهذا الاهتمام الكبير بالسنة حفظاً لها وتوثيقاً وشرحاً وتوضيحاً واستنباطاً للأحكام والآداب والمعتقدات يرجع إلى أن الإسلام لا يمكن فهمه وتطبيقه إلا

---

(٢٤) أكرم العمري: بحوث في تأريخ السنة المشرفة.

بالاعتماد على مصدريه الأساسيين: القرآن والسنة، وقد ورد حديث نبوي يؤكد ذلك(تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنة نبيه)[٢٥].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحتجون بالسنة، ولا يجيزون إغفالها، وهكذا فعل من بعدهم من أجيال المسلمين حتى االوقت الحاضر.

والمراد بالسنة التي يحتج بها ما ورد عن النبي على سبيل تبليغ الرسالة الإسلامية سواء اتصل بالعقائد الغيبية مثل العلوم المتعلقة بالآخرة والمعاد والجنة والنار أو الشرائع. ولا يدخل في ذلك ما ليس من تبليغ الرسالة مثل ما فعله على سبيل العادة والاتفاق دون القصد، مثل الطب، وطرق تعبئة الجيوش ، واستصلاح الزرع، وغير ذلك من تجارب الحياة مما لا تعلق له بالوحي[٢٦].

إن القسم الأكبر من السنة النبوية هو أقوال حيث كان النبي يبلغ بلفظه ما يوحى إليه من أحكام ، ويبين ما أشكل من معاني القرآن، ويجيب على الأسئلة والاستفسارات الموجهة إليه من أصحابه، ويدعوا إلى الإسلام الأفراد والجماعات في لقاءات خاصة أو اجتماعات عامة لأمور واقعة، أو لمناسبات تتكرر ، كما في مجالس حديثه مع المؤمنين في المسجد والسوق والمنزل، والسفر والإقامة، وكما في خطبه في الجمعات والأعياد والحج وغير ذلك، واتخذ المنبر ليسمع قوله أكبر عدد من الحاضرين بأكبر قدر من الوضوح[٢٧].

أما القسم الآخر من السنة فهو أفعال النبي، فقد تمثلت فيه تعاليم الإسلام النظرية وتحولت إلى واقع ملموس، لذلك قالت عائشة أم المؤمنين:« كان خلقه القرآن »[٢٨].

---

(٢٥) موطأ مالك (٢ / ٨٩٩) ط. عبدالباقي.

(٢٦) الدهلوي : حجة الله البالغة (١ / ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٢٧) محمد سليمان الأشقر :أفعال الرسول (١ / ٤٢).

(٢٨) صحيح مسلم (٦ / ٢٦).

وبذلك عرف الناس أن الإسلام ليس مجرد تعاليم مثالية، بل هو قابل للتطبيق، حيث يقدر كل متعلم أن يدرس « سيرة النبي » ليحقق عن طريق القدوة والتأسي به مثله العليا وممارسته للدين.

وقد تنوعت أوجه نشاط النبي الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية ليجد في الإنسان مثالاً في العبادة والدعوة والأبوة والحياة الزوجية وبذلك يجد المقتدي به « مثاله » الذي يسعى إلى محاكاته، ويبدو نشاطه في أمور الحياة واضحاً لأن الإسلام يجمع بين شؤون الآخرة والدنيا ، وبذلك أمكن الاقتداء به في أمور الدنيا المتنوعة ، وقد وضح سنته في الحياة العملية منكراً على بعض الصحابة الذين رغبوا في الامتناع عن الزواج أو النوم أو الطعام تقرباً إلى الله، فقال :(أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢٩]، وهكذا لم تعد الرهبانية وتعذيب الجسد وكبت الحاجات الفطرية مطلباً دينياً للتقرب إلى الله بل صار إشباعها نوعاً من العبادة إذا استحضر الإنسان النية الصالحة عند ممارستها، بما في ذلك العلاقة الزوجية، قال الصحابة :(يارسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر!! فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر)[٣٠].

وكان النبي يلاحظ ما يصدر عن الصحابة من أقوال وأفعال، ويصحح لهم ما يخطئون فيه ، وبذلك كانوا يتعلمون بالعمل، وقد اعتبر إقراره لما يسمع ويرى منهم جانباً من السنة ، فما وافقهم عليه فهو السنة التقريرية.

وكان السلوك النبوي محكوماً بضوابط الإسلام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن أفعاله حجة مثل أقواله، وأنه أسوة ، فكان يحرص على اجتناب

---

(٢٩) صحيح البخاري – فتح الباري (١١ / ٤) وصحيح مسلم (٩ / ١٧٦).
(٣٠) صحيح مسلم (٢ / ٦٩٧).

مواضع التهم، فقد رآه اثنان من أصحابه مع امرأة عقب صلاة الفجر، فعرفهما بأنها زوجته صفية ، رغم أنهما لا يخطر على بالهما أنها أجنبية عنه[٣١].

وكان منهجه اليسر، وكان يوصي أصحابه بذلك (يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا)[٣٢]، وقد طبق ذلك المنهج في الحياة العملية، فكان يخفف صلاته أمام الناس مراعاة لظروفهم، ويطيلها إذا اختلى بنفسه. وقد اختصه الله ببعض التكاليف فكان يقيم الليل مصلياً، ويواصل الصوم بعد الغروب دون إفطار ، ويوضح للناس أنها تكاليف خاصة به لئلا يقتدوا به فيشق عليهم.

وعبر عن ذلك حديث نبوي نصه :(إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً)[٣٣] ووصفت عائشة هذا المنهج بقولها : (إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به مخافة أن يعمل به الناس فيفرض عليهم)[٣٤].

وكان يتقرب إلى الله بالصلاة زيادة على ما فرض عليه، وقد صلى في مسجده في رمضان بعد العشاء متطوعاً مرتين أو ثلاثاً ، فاجتمع الصحابة وصلوا خلفه، فترك ذلك لئلا تفرض عليهم تلك الصلوات مما يجلب عليهم المشقة[٣٥].

ولم تكن له حياة خاصة سرية بل كانت حياته الخاصة وعلاقته بزوجاته معروفة للناس لأنها جزء منن التشريع ، فكانت زوجاته ينقلن الأحكام الخاصة بالنساء للناس، وهذا من أسباب زواجه بأكثر من أربع نسوة ليتم النقل بأوسع نطاق حيث لم تكن وسائل الإعلام متقدمة في ذلك العصر، بل تعتمد على التبليغ الفردي للمعلومة.

---

(٣١) صحيح البخاري (٣ / ٦٥).

(٣٢) صحيح البخاري (٤ / ٧٩)، وصحيح مسلم أشربة (٥٧١).

(٣٣) صحيح مسلم، رقم الحديث (١٤٧٨).

(٣٤) صحيح البخاري (٣ / ١٠).

(٣٥) ابن حجر: فتح الباري (٣ / ١٠).

وتتسم السنة بشمولها لحياة الإنسان كلها من المرحلة الجنينية إلى ما بعد الوفاة ابتداء من علاقته بالله وانتهاء بعلاقاته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فهي تؤكد على حسن التعامل مع المرأة وتخاطبها بما تخاطب به الرجل من كرامة وحقوق وواجبات، كما تؤكد على التكافل الاجتماعي بين النساء وإشاعة روح التعاون والألفة بينهم، وتحثهم على إشاعة التبسم وروح التفاؤل في المجتمع ، وتمنعهم من الاحتكار والمراباة ، وتوجه اقتصادهم نحو الاستثمار النافع وتعدهم عليه بالأجر من الله بالإضافة لأرباحهم المادية.

وتتسم السنة «بالتوازن» بين الروح والجسم ، وبين العقل والقلب ، وبين الدنيا والآخرة ، بين المثال والواقع ، بين النظر والعمل ، بين الغيب والشهادة ، بين الحرية والمسؤولية، بين الفردية والجماعية ، بين الابتداع والإتباع، ولما رأى النبي مبالغة عبد الله بن عمرو بن العاص في الصيام وقيام الليل وتلاوة القرآن رده إلى الاعتدال والتوازن بين مطالب الروح والجسم قائلاً له :(إن لبدنك عليك حقاً، ولعينيك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً)[٣٦].

ويتلقى النبي الوحي من الله معنى ولفظاً ، وهو القرآن، كما يتلقاه معنى يصوغه بأسلوبه، وهو السنة ، وهو يصحح أقواله وأفعاله بناء على هذا التلقي بنوعيه، فلما سأله رجل عن الاستشهاد في سبيل الله هل يكفر عنه خطاياه أجابه: نعم. فلما بعد الرجل ناداه وبين له أن عدم الوفاء بالديون لا تكفره الشهادة، بل يبقى في ذمة الشهيد ويحاسب عليه في الآخرة. وصرح للرجل بأن جبريل أخبره بذلك[٣٧].

ويجتهد النبي في بيان دلالات الألفاظ الموحى بها إليه، بما يعرفه من لغة

---

(٣٦) صحيح البخاري، يوسف القرضاوي، المدخل لدراسة السنة النبوية، ص ٩٢.
(٣٧) صحيح مسلم (٣/١٥٠٢، ١٨٨٦).

قومه –قريش– وأساليبهم في القول، لأن القرآن نزل بلغتهم، وإن كان الوحي قد تكفل ببيان الكثير من هذه الدلالات. كما يجتهد النبي بقياس الأحداث المستجدة غير المنصوص عليها في القرآن بناء على الاشتراك في علة الحكم ، كما يجتهد في بيان الحكم أو إبداء الرأي دون نص من قرآن أو قياس عندما تحدث الوقائع ولا ينزل عليه وحي بشأنها ، ولو حدث أن أخطأ في الحكم أو الرأي فإن الوحي يصحح موقفه إذا كان يتعلق بالنواحي الشرعية.

وكان الصحابة يشيرون عليه بالرأي ، فيقبل منهم ، وربما يعترضون على بعض مواقفه فيبين لهم مستنده وحجته، وقد ينزل الوحي بتأييدهم كما حدث في إطلاق سراح أسرى بدر حيث اختلفت آراء الصحابة في الموقف منهم ومال النبي إلى رأي من أشار بإطلاق سراحهم مقابل فدية، فلما أطلق سراحهم نزل القرآن بعتابه مبيناً أنهم مجرموا حرب يستحقون العقوبة.

وقد أكد القرآن على بشرية الرسول ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾(٣٨) ولم يقل أحد من المسلمين بأنه إله ، أو ابن إله ، لكنه معصوم من كبائر الذنوب ، كما أنه معصوم من الخطأ في التبليغ، وله معجزات حسية تخرق سنن الطبيعة وقوانين المادة ، وقد شهدت الجموع الغفيرة معجزاته ، لكن تلك المعجزات لا تخرجه عن طبيعته البشرية التي تظهر بوضوح في مرضه وجوعه وعطشه ونومه وضعفه وإصابته بالجروح والرضوض مما يقع على البشر عادة.

وفي الختام لابد من التنبيه على خطأ القائلين بالاعتماد على القرآن وحده دون السنة في معرفة أحكام الإسلام وآدابه ونظمه، فإن هذا الرأي يفضي إلى تحريف معاني القرآن نفسه فضلاً عن عدم اكتمال الإسلام الذي يعتمد على الوحيين معاً القرآن والسنة مع الاستنارة بآراء أهل العلم في فهمهما.

---

(٣٨) فصلت : الآية ٦.

المصــادر

* القرآن الكريم :

١ - أحمد : المسند، ٦ مجلدات، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

٢ - الأشقر: محمد سليمان ، أفعال الرسول.

٣ - لبخاري: الصحيح، نشر المكتبة الإسلامية، استنبول. وكذلك نسخة فتح الباري، طبع المطبعة السلفية ، مصر.

٤ - الترمذي : الجامع ، ٥ مجلدات، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥ - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ١٣ مجلداً، ط. المطبعة الخيرية، القاهرة(١٣١٩-١٣٢٩هـ).

٦ - حماد بن إسماعيل : تركة النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق أكرم العمري، مؤسسة الرسالة ، بيروت -١٤٠٥هـ.

٧ - أبو داؤود: السنن ، ٥ مجلدات، طبعة واحد ، تحقيق عزت عبيد العاس وعادل السيد ، نشر دار الحديث، بيروت، ١٣٨٨هـ. وكذلك طبعة محيي الدين عبدالحميد ، مصر.

٨ - الدهلوي: حجة الله البالغة.

٩ - الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، نشر وزارة الأوقاف العراقية.

١٠ - الطبري: التفسير، ط٣ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

١١ - عبدالرحمن عبدالخالق: حجية السنة.

١٢ - العمري: أكرم ضياء، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، ط٥.

١٣ - القرضاوي: يوسف ، المدخل لدراسة السنة النبوية.

١٤ - ابن ماجه: السنن ، مجلدان، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. دار إحياء الكتب العربية ، مصر، ١٩٥٣م.

١٥ – مسلم: الصحيح، ٥ مجلدات، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط١، نشر دار إحياء الكتب العربية، مصر (١٣٧٤–١٣٧٥هـ).

١٦ – النسائي: السنن (المجتبى)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧ – موسى بن عقبة: المغازي، جمع ودراسة محمد عبدالله باقشيش، رسالة ماجستير بإشراف أكرم العمري، قدمت إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٤٠٠هـ)

١٨ – ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق السّقا والإبياري وشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر – ١٣٧٥هـ. وكذلك ط. محيي الدين عبدالحميد.

١٩ – (The Encyclopaedia of Islam, vol 111. 1956) مادة «حديث» كتبها روبسون (ROBSON).